دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	زي المرأة السودانية و التغير الاجتماعي
المصدر:	مجلة الدراسات السودانية
الناشر:	جامعة الخرطوم - معهد الدراسات الافريقية والاسيوية
المؤلف الرئيسي:	النقر، سامية الهادي
المجلد/العدد:	مج11, ع1,2
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1991
الشهر:	أكتوبر
الصفحات:	32 - 48
رقم MD:	638809
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	المرأة السودانية، الأزياء، التغير الاجتماعي، القيم الاجتماعية، القيم الدينية، المرأ' العاملة
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/638809

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

زى المرأة السودانية والتغيّر الاجتماعى

سامية الهادى النقر

تهدف هذه المقالة لالقاء نظرة سريعة على زى المرأة السودانية خاصّة فى المدن فى شمال السودان وما طرأ على هذا الزّى من تغيّرات عبر الزمن وما لذلك من ارتباط بالتغيّرات الاقتصادية والاجتماعية عامّة والتغيّرات التى طرأت على أوضاع المرأة خاصّة.

الزّى عنصر ثقافى يرتبط بغيره من العناصر الثقافية مثل الأعراف والمعتقدات والعادات والتقاليد، ويتأثر بالظروف الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والبيئية التى تعيش فيها المجموعة. ولذا فإنّ ما يطرأ من تغيّرات فى ظروف المجتمع قد يكون له أثره فيما يرتديه أفراد المجموعة من زى. ولكن عموما بما أنّ الزّى يرتبط بالمعتقدات والتقاليد فالتغيّرات تكون شكلية أو تتم فى بطء، وفى إطار هذه المعتقدات والتقاليد. وقد يمر زمن طويل قبل أن يحدث تغيير واضح وعام فى مجتمع ما فى ما يرتديه أفراده.

وقد يصعب تتبّع التغيّرات التاريخية التى جرت لزى المرأة نظرا لمحدودية الدارسات فى هذا الباب غير أنّه بالاستعانة بالقليل الموجود من دراسات وما تمّ جمعه من معلومات من مقابلات مع أشخاص من أجيال مختلفة سيتم إلقاء الضوء على ما طرأ من تغيّر على زى المرأة السودانية الحضرية وسيتم التركيز على معتمدية الخرطوم لأنّها أكثر تحضرا مقارنة بالأقاليم الأخرى وتتمركز فيها كل الخدمات الاجتماعية ووسائل النقل الى داخل وخارج السودان، كما يتم فيها تفاعل عدّة مجموعات من داخل وخارج السودان. ولهذه الأسباب تصبح سمات التغيّر الاجتماعى أكثر وضوحا فى الخرطوم من الأقاليم الأخرى.

تأتى أهمّية موضوع الزّى لعدّة اعتبارات :-

أولا: إنّ الزّى أصبح عنصرا هامّا لدى النساء للتميّز الاجتماعى والسياسى بين صفوفهنّ، وبدأت بعض الجماعات تعدّه عنصرا هامّا للدلالة على سلوكيات معينة.

ثانيا: إنّ ظاهرة التركيز على الزّى قد تنذر بانعكاسات سلبية على وضع المرأة ووعيها وتوجّه التغيّرات فى أوضاعها.

ثالثا: إنّ ما يشهده السودان من تدهور اقتصادى وما طرأ من تغيّرات واهتمام بالزّى قد جعل الزّى عبئا اقتصاديا على الأسرة.

رابعا: وأنّه بالرّغم من الاهتمام المتزايد فى العقدين الأخيرين بدراسات المرأة فى السودان فإنّ هنالك غياب تام لدراسة متعمّقة لموضوع زى المرأة وما طرأ عليه من إضافات وتغيّرات كما أشرنا من قبل.

ولهذه الاعتبارات يعتبر موضوع زى المرأة قضية جديرة بالاهتمام والدراسة لبلورة أو معالجة ما يصحبه من انعكاسات على المرأة وأوضاعها وقضاياها وكذلك لتوثيق عنصر من عناصر الثقافة المادية قابل للاستمرار وخاضع للتغيّر.

لمحة تاريخية

جاءت الاشارة الى أزياء النساء عرضا فى بعض الكتب التاريخية والتى أكدت اختلاف الأزياء بين النساء من مختلف الأعمار ومن مختلف المجموعات وفى الفترات التاريخية المختلفة.

وفى هذا الصدد أشار بركاردت فى سنة ١٨٢٩م فى ملاحظاته من زيارة الى بربر وشندى عام ١٨١٣ أنّ البنات صغار السن كنّ يلبسن غطاءا صغيرا يسمّى (الرّحط) يتدلّى من الخصر وحتى منتصف الفخذين أمّا نساء الطبقات العليا فكنّ يلبسن غطاءا أحمر بخطوط بيضاء فوق التنورة [1] وتعنى هذه الملاحظات أنّ النساء عامّة كنّ يلبسن التنورة فقط.

ولا يختلف وصف نعوم شقير كثيرا إذ أشار الى أنّه بين عرب السودان البنت من نحو سن الخامسة تستتر (بالرّحط) وعرّفه على أنّه سير من جلد يعقد حول الخصر تتدلّى منه قدد دقيقة الى ما فوق الركبتين وقد تلبس فوقه (شقة) من الدمور أو تبقى عارية لا يسترها إلاّ الرّحط الى أن تتزوّج فتخلعه وتلبس بدلا منه فوطة كفوطة الحمام تعرف (بالقرقاب) وفوقها شقة أكبر منها قليلا بحواش من الحرير تعرف (بالقرن) وفوقها ثوب من الدمور أو الدبلان أو الشاش يشتملن بها اشتمال الصماء وتستر رأسها حتى لا يظهر منها إلاّ عيناها. والمقتدرات منهنّ يلبسن فوطة أو برصة من الحرير الملة. [2] ويتضح من الدراسات التاريخية أنّ أزياء القرن التاسع عشر وقبله كانت

تشمل الرّحط والقرقاب والشقة والثوب وتختلف المجموعات في استعمالها ونوعية المادة المصنّعة منها. فبعض المجموعات تلبس ما يشبه الرّحط الذى هو مصنوع من أوراق الشجر كبعض القبائل النيلية في جنوب السودان.[٣] ونساء بعض المجموعات يستعملن الشقة فقط وهي في شرح شقير مشابهة للثوب . وبين مجموعات أخرى تجمع النساء بين القرقاب والشقة والتى غالبا ما تكون مصنّعة من الدمّور.[٤]

وفى عهد المهدية أصدر المهدى أمرا للنساء بتغطية وجوههنّ خارج المنزل. ومنذ ذلك الوقت بدأ انتشار ما يسمّى (البلّامة) بين نساء الحضر وهى استخدام جزء من الثوب الذى تلف به المرأة جسدها لتغطية وجهها ماعدا عينيها.. وممّا ورد ذكره أعلاه فى وصف ملابس النساء قديما يتضح اختلاف المجموعات السودانية فى طريقة تغطية النساء لجسدهنّ واختلاف نوعية الملابس التى تستخدمها المجموعات المقتدرة اقتصاديا عن تلك التى تستعملها المجموعات الفقيرة.

يمكن أن نرجع الاختلافات فى طريقة تغطية الجسد الى الاختلافات الاجتماعية فى المجتمع، فقد كانت هناك فوارق أساسية بين الملكات والسيدات الاحرار وبين الأموات (جمع أمة) وذلك فى وضعهنّ من علاقات الانتاج والحياة المنزلية والعامّة.[٥] وبالتالى هنالك اختلاف بين ما ترتديه كل مجموعة فى الذى جاء ذكره من قبل بخصوص النساء المقتدرات .

وفى فترة الاستعمار البريطانى لم تكن المرأة أحد محاور اهتمام الحكومة بالقدر الذى يخدم مصالحها ولذلك لم تهتم بالمرأة وقضاياها. ولكن ما تمّ من تغيّرات معلومة فى البنية الاقتصادية الاجتماعية كان له آثاره على المرأة. فبدأ تعليم المرأة نتيجة جهود المواطنين وضغطهم على الحكومة لتوفيره كما دخلت المرأة مجال العمل فى نطاقات محدودة غير أنّه لم تطرأ تغييرات ملموسة فى القيم والأيديولوجيات التى تحكم زى المرأة وخصوصا مشاركتها فى الحياة العامّة، وعليه لم تطرأ تغيّرات جذرية فى أزياء النساء.

ويذكر بعض الرّواة أنّ أسلوب غطاء الوجه كان منتشرا في الخرطوم ولم تسلم منه رائدات التعليم، والشاهد على ذلك ما كانت ترتديه طالبات مدرسة الاتحاد عام ١٩١١ من تنورة طويلة وبلوزة

باكمام طويلة من فوقها جاكيت بنفس لون التنورة وغطاء للشعر يتدلّى على الظهر وغطاء للوجه يشبه ما تستخدمنه بعض النساء في الدول العربية. وفي نفس الاتجاه تشير دراسة حاجة كاشف [٦] الى انّ طالبات المدارس في الخمسينات كنّ يسرن ملثمات ولا يظهر من وجوههنّ غير العينين ومعهنّ تابع قد يكون أحيانا أخا أصغر سنّا. وتسرد فاطمة أحمد ابراهيم أنّها وزميلاتها المسئولات عن تحرير مجلة صوت المرأة ذهبن للمطبعة وهنّ يلبسن ثيابا ثقيلة لا تكشف شيئا عن أجسامهنّ وغطّين وجوههنّ بحيث لا تبرز إلا أعينهنّ وكان ذلك في حوالي منتصف الخمسينات. [٧]

ولكن ما أوردناه لا ينفي وجود بعض التغيّرات في فترة الاستعمار البريطاني بالنسبة لأزياء النساء. فأولا تأثرت أزياء الطالبات والنساء العاملات في المجالات الصحية بالأزياء الأوربية إذ كان ما يستخدم يشابه ما هو متداول في مدارس ومستشفيات انجلترا. وعموما فقد انحسر استعمال القرقاب والفوطه وخاصة بين النساء المتعلمات وانتشر استعمال الفستان تحت الثوب.

كذلك كان للتداخل والتواصل بين النساء السودانيات ونساء الجاليات الأجنبية في الخرطوم أثر كبير في تغيّر زي النساء. وهنالك العديد من الأسماء لأنواع الأقمشة والأزياء التي تؤكد أثر احتكاك النساء الأوربيات بالنساء السودانيات والتأثير أكثر وضوحا بالنسبة لنساء التجار وزوجات الموظفين اللائي يخالطن الأجانب. وقد ساعد في ذلك وجود الأقمشة المستوردة في الأسواق. [٨]

ومن التغيّرات التي جدت على زي المرأة أيضا استعمال الأقمشة للثوب مصنّعة في انجلترا بدلا من تلك التي كانت تستورد من مصر أو تصنع محليا. ولكن ذلك كان بين مجموعات معينة من الطبقات المتيسرة إذ كانت أغلبية المجموعات الفقيرة تلبس ما يسمّى بثوب الزراق وهو من قماش مصري رخيص يتم صنعه محليا وينتشر أيضا استعمال (الفراد) والبنقالي وهي أيضا أثواب مصنّعة محليا كما كانت هنالك ثياب خاصة تلبسها النساء ولفترات طويلة في حالة وفاة أحد أفراد الأسرة أو أحد الأقرباء.

من هنا يمكن القول بأنّ ما طرأ من تغيّرات في أزياء النساء

فى فترة الاستعمار كان شكليا وذلك يمكن أن يعزى لأنّ سياسة الحكومة التعليمية كانت باتجاه تركيز العادات والمعتقدات وخاصة المرتبطة بوضع المرأة وذلك تفاديا لاثارة عداء المواطنين وحصر الاستعمار هدف تعليم النساء فى جعل المرأة ربّة منزل أكثر منها إنسانة مثقفة واعية عاملة. ولم يكن هدف الحركة النسائية التقدمية قبل الاستقلال إجراء أى تغيّرات فى جانب الأزياء. ولذا كانت حتى القائدات ورائدات العمل النسائى أكثر التزاما بالثوب وتغطية أجسامهنّ ووجوههنّ إن دعت الضرورة، وذلك إيمانا منهنّ أنّ التغييرات فى بعض العناصر الثقافية ومنها الأزياء ستأتى لاحقا مع التغيّر فى وعى المرأة.[٩] أضف الى ذلك أنّه مع بداية الحركة النسائية قبل الاستقلال كانت هنالك مجموعة من(الأخوات المسلمات) التى تعطى المظهر وخاصة تغطية الجسد (الحجاب) الأولوية فى قضايا المرأة.

بعد الاستقلال طرأ نمو فى القطاعات المختلفة الانتاجية والخدمية وكان للمرأة نصيبها فى ذلك إذ زاد عدد المدارس للبنات وزادت أعداد النساء فى مجالات العمل وتعدّدت القطاعات والمهن التى تعمل فيها المرأة وزاد نشاط المرأة العام،وإن ظلّ الى حد كبير محدود على نساء الطبقات الوسطى المتعلمات والرائدات منهنّ فى الحركة النسائية. وقد نشأ فى فترة ما بعد الاستقلال صراع فكرى كان له أثره على الحركة النسائية والاهتمام بقضايا النساء. وكان لهذا الأمر أثره الواضح على زى المرأة فى هذه الفترة من تاريخ السودان عامّة ومعتمدية الخرطوم خاصّة.

يمكن أن نشير هنا الى نشوء ثلاثة تيارات فكرية بشأن المرأة. فقد كانت هناك مجموعة الاخوات المسلمات التى كانت تهتم بجانب المظهر وتنادى وتركز على الحجاب ،وتغطية أغلب أجزاء الجسد باضافات على الثوب التقليدى. وكانت هناك مجموعة أخرى تدعو الى نزع الثوب والحجاب واتباع الموضات الأوربية بينما كانت هناك مجموعة فكرية ثالثة لم تر منطقا فى محاربة الثوب والحجاب على خلاف المجموعة الثانية إلاّ أنّها لم تركز على المظهر كقضية أساسية من قضايا المرأة واتسم موقعها باحترام التقاليد على ايمانها أنّ ما يأتى من تغيّرات تاريخية على المظهر يتبع عوامل وتطورات

اقتصادية واجتماعية.(١٠)

انعكست التيارات الفكرية الثلاثة فى الأزياء التى كانت ترتديها النساء فى الخرطوم فى نهاية الخمسينات وخلال الستينات وبداية السبعينات إذ أصبحنا نرى أغلبية النساء يرتدين الثوب السودانى وتحته الفستان ووجدنا النساء العاملات والطالبات يلتزمن بالثوب الأبيض. وكنّا نرى مجموعة قليلة جدا غطّت شعرها تحت الثوب تحت تأثير أفكار مجموعة الاخوان المسلمين وفى نفس الوقت كانت هنالك مجموعة من الطبقات المتوسطة فى الخرطوم تلبس البنطلون وأزياء أخرى على حسب ما هو متبع فى أوربا.

وتجدر الاشارة هنا الى أنّه فى فترة الستينات كان هنالك اهتمام متزايد بالموضة فكانت تظهر الثياب فى شكل موضات وتطلق على بعضها أسماء معينة مثل ثوب (أسبوع المرأة) و(الأمير) الى آخره. وكان منشأ ذلك بين نساء الطبقات المتيسرة فى الخرطوم. واختلفت ثياب النساء من الطبقات الغنية والمتوسطة من ثياب نساء الطبقات الفقيرة فى المادة المصنّعة والألوان كما أنّ التغيّر الى الأحسن فى الوضع الاقتصادى لدى الطبقات الفقيرة والنمو الذى حدث لها قاد بدوره الى انحسار واضح لما يسمّى بثوب (الزراق) بين هذه الطبقات.(١١)

ويختلف ما طرأ من تغيّرات على أزياء النساء فى السودان اختلافا كبيرا على ما طرأ على أزياء المرأة المصرية بعد الثورة المصرية فى سنة ١٩٥٢م وفى فترة الستينات إذ تخلّت النساء المصريات عن لبس ما يسمّى بالحجاب أو الملاءة. وكان هنالك اتجاه عام بين النساء خاصّة فى المدن للبس الأزياء العالمية الحديثة وصاحب ذلك قناعة عند هؤلاء النسوة بأنّ الأزياء العالمية بمواصفات معينة يمكن أن تكون ساترة وبالتالى لا تتنافى مع تعاليم الدين الاسلامى.(١٢)

تميزت فترة نهاية السبعينات حتى منتصف الثمانينات بتغيّرات عدّة فى المجالات الاقتصادية والسياسية وكان لها أثرها المباشر على الأزياء. فقد شهد الاقتصاد السودانى تدهورا فى كل الأوجه ويتمثل ذلك فى العجز فى ميزان المدفوعات ،والاعتماد على القروض الأجنبية والتدخل السّافر للمؤسسات العالمية المالية ممّا انعكس سلبا على

الاقتصاد فانخفض سعر صرف الجنيه وبالتالى ارتفعت أسعار الأقمشة المستوردة والتى كانت تفوق الانتاج المحلّى البسيط جمالا وطول عمر. وشهدت هذه الفترة أيضا انفتاحا على العالم الخارجى وازديادا فى حركة التنقل خارج السودان بالنسبة للكثير من الأسر السودانية وخاصّة الطبقات الميسّرة فى المدن. وبالنسبة للنساء فقد ارتفعت نسبة التعليم وتوسّعت مجالات العمل والخبرات .

ولوحظ فى العقدين الأخيرين،ونتيجة للسياسات الاقتصادية المذكورة ،نمو الطبقات الطفيلية وظهور أنماط استهلاكية جديدة خاصّة فى جانب الأزياء. وانعكس ذلك فى إقبال النساء على شراء الثياب والمساهمة فى تغيّر موضات الثياب والأزياء عامّة وساعدت فى ذلك الزيادة فى أعداد العمالة المهاجرة الى الدول العربية ووفرة الأموال لديهم ووجود أسواق خاصّة للثوب السودانى،وانتشرت تلك الأسواق فى بعض الدول الأوربية مثل انجلترا وشاركت حتى المصانع السويسرية فى المنافسة فى موضات الثوب السودانى والأزياء عامّة. كما ظهرت فروع تلك المتاجر فى دول المهجر لتضمن وصول المواد للمهاجرين فى مناطقهم. (١٣)

أضف الى ذلك وجود وسائل الاعلام المرئى والمسموع والمقروء وأبرزها الأفلام التلفزيونية والمسلسلات والتى كانت أحيانا مصدرا لاقتباس موضات للأزياء. كما كان لتوافر مجلّات المرأة والأزياء من الدول العربية أثرا فيما هو منتشر من أزياء بين النساء السودانيات وخاصّة الشابات فى العقدين الأخيرين.

فى نهاية السبعينات زاد نشاط المجموعات الاسلامية وظهرت الجمعيات النسوية والشبابية ذات التوجه الاسلامى وكان من أبرز قضاياها زى المرأة. واستطاعت هذه الجمعيات أن تنظّم السمنارات وورش العمل والمعارض التى تدعو للحجاب وكان من نتاج ذلك ظهور جيل من المحجبات المنضويات تحت هذه الجمعيات وغيرها. وهذا الاتجاه هو امتداد لنشاط المجموعات الاسلامية فى معظم الدول العربية والتى كان من أبرز آثار نشاطاتها التغيّر فى أزياء المرأة فى كثير من الدول العربية نحو (الحجاب) الذى أصبح موضوعا للدراسة والتحليل. (١٤)

كانت حصيلة السياسات الاقتصادية والاجتماعية والتأثيرات الثقافية وما تبلور منها من أفكار أن أصبحت هنالك عدّة أنماط للأزياء بين النساء السودانيات فى الخرطوم. ويمكن أن نشير الى اختلافات واضحة فى أزياء النساء بحسب الجيل والانتماء الطبقى. ولتتبّع ما حدث من تغيير فى زى المرأة عبر هذه الأجيال المشار اليها قد يكون من الضرورى إعطاء وصف كامل لكلّ أنماط الأزياء المستخدمة ،بما فى ذلك أزياء طالبات المدارس والنساء العاملات ، وذلك حتى يتسنّى لنا مناقشة المشاكل الاقتصادية والانعكاساتالسلبية التى يمكن أن ترتبط بالزّى.

الأزياء فى مجالات العمل

(١) أزياء الطالبات : التغيّر واضح فى أزياء الطالبات وخاصّة اللآئى فى المراحل المتوسطة والثانوية العليا،فبعد أن كان فستانا يتدلّى تحت الركبتين بأكمام قصيرة وفوقه الطرحة بالاضافة الى الثوب الأبيض عند الأغلبية ،أصبح منذ نهاية السبعينات ،وبأمر من وزارة التربية والتعليم يتكوّن من ثلاث قطع: فستان،وبنطلون،وغطاء للرأس . ومن الملاحظ أنّ هنالك تغطية كاملة للشعر والعنق وذلك باستعمال أكثر من غطاء ولكن بالرغم من التزام معظم الطالبات بهذا الزّى فإنّ هنالك بعض الطالبات اللآئى لا يهتمن بتغطية رؤوسهنّ أو شعرهنّ وخصوصا خارج المدرسة.

(٢) أزياء العمل: توجد أزياء محدّدة للنساء فى مجالات العمل المحدّدة وذلك مثل المهن الطبية والمجنّدات فى القوات المسلّحة والموظفات فى المرافق العسكرية وكذلك النساء العاملات فى النظافة فى المرافق الحكومية. وتوفر بعض المصانع زيّا خاصّا للعاملات وترتدى موظفات الأسواق الحرّة والطيران أيضا زيّا محدّدا.

مازالت معظم العاملات فى مهنة التمريض يرتدين الزّى الأبيض بنفس المواصفات التى كانت سائدة منذ عهد الاستعمار ولكن من الملاحظ أنّه فى السنين الأخيرة بدأ تغيّر فى زى طالبات التمريض وأصبح يشبه زى طالبات المدارس ولذلك من المتوقع أن ينتشر هذا

الزّى حتى بعد أن يتم تعيينهنّ فى المستشفيات . أمّا المجنّدات فقد كان زيّهنّ يتكوّن من تنورة (إسكيرت) أو بلوزة وثوب أحيانا، أمّا مؤخرا فأصبحت كل العاملات فى المرافق العسكرية يلبسن زيّا مكوّنا من ثلاث قطع يشبه زى الطالبات وبعضهنّ يلبسن ثوبا فوق ذلك الزّى فى الطرقات العامّة.

أمّا معظم المرافق الحكومية فقد وفرت لعامليها فى النظافة زيّا موحّدا وشمل ذلك النساء. ولكن معظمهنّ لا يلتزمن بهذا الزّى. وفى بعض المصانع تستبدل النساء ثيابهنّ داخل المصانع بأوفرول غالبا ما يوفره المصنع، وبين طالبات المعاهد العليا كان سائدا استخدام الثوب الأبيض وتحته فستان أو اسكيرت فوق الركبتين وبلوزة من أى لون ولكن من الملاحظ أنّه فى السنين الأخيرة زاد عدد طالبات الجامعات والشابّات العاملات اللائى تخلّين عن الثوب ولجأن للأزياء العالمية بأنماط مختلفة. وانتشر فى نهاية الثمانينات استخدام الثوب الأبيض المحلّى بألوان مختلفة من قبل طالبات الجامعات وبعض النساء العاملات. وبالرغم من أنّ أغلبية النساء العاملات يلتزمن بالثوب الأبيض إلا أنّ هناك بعض التجاوزات التى عملت إدارات العمل المختلفة على الحد منها. فمثلا عندما لاحظت إدارات البنوك دخول ألوان على الثوب الأبيض أصدرت أمرا تلزم فيه العاملات بلبس الثوب الأبيض الخالى من أى لون. (١٥)

الأزياء خارج مجالات العمل الرّسمى

أمّا خارج المجالات الرسمية فيمكن أن نشير الى عدّة أنماط من الأزياء:-

(١) الثوب والفستان:- وهو أكثر أنواع الأزياء تداولا بين النساء وخاصّة اللائى فوق سن الثلاثين وبين النساء من الأقاليم المختلفة باستثناء النساء من الأقاليم الجنوبية ومنطقة جبال النوبة والأنقسنا وإن كانت بعض النساء من هذه المناطق ممّن يعشن فى الخرطوم يلبسن الثوب أو نوعا من الغطاء فوق الفستان.

ومعلوم أنّ الثوب قطعة من القماش طولها أربعة أمتار ونصف وعرضها ١٨٠ سم، ومن مواصفاته أن يكون خفيفا إذ أنّه، ومنذ الستينات ظل يصنع من القطن. ولكن طرأت مؤخرا بعض التغييرات على

صناعة الثوب ومنها توافر أثواب ذات عرض عرض أقل يتراوح ما بين ١٤٠و١٦٠سم وذلك قد يكون اتجاه من مصانع الثياب لتقليل التكلفة، أضف الى ذلك سببا آخر هو اتجاه بعض النساء لابتداع أنواع من موضات الثياب . وبالتالى فهنّ لا يهتمن بعرض الثوب بقدر اهتمامهنّ بنوعيته ولونه وسعره وكذلك ونسبة للغلاء الفاحش للأقمشة القطنية أصبحت ثياب البوليستر أكثر استخداما من قبل المجموعات غير المقتدرة .

فى بداية السبعينات كانت الموضات بسيطة وقد توافرت نوعيات من الثياب بأسعار مناسبة للمجموعات المختلفة وكانت ثياب التوتال الملوّنة برسومات بسيطة أو الخالية من الرسومات هى قمّة الموضة . وكانت الفئات المقتدرة تقتنى ثياب الشيفون للسهرات . ولكن منذ بداية الثمانينات تسارع نقل موضات الثياب وتحاول الكثيرات من النساء فى العاصمة القومية اللّحاق بهذه الموضات ،وقد ساعدت صناعة الثوب فى بعض الدول الأوربية وانفتاح السوق السودانى المغترب له فى انتشار هذه الموضات وازدهارها .فى هذا الصدد تجدر الاشارة الى دور المصانع المصرية التى دخلت فى السنين الأخيرة فى مجال صناعة الثوب السودانى ممّا زاد عدد جهات التصنيع وأدّى الى التنافس بين الجهات المنتجة وزاد العرض ونتج عنه وجود ثياب بأسعار مناسبة لبعض الفئات . وقد يكون لنمو الطبقات الطفيلية دور فى ظهور الموضات ،إذ أنّها تمكنت من توفير الامكانيات المادية لنسائها حتى يدخلن فى التنافس مع نساء الطبقات المتيسرة ويشاركن فى ازدهار أنواع الموضات المختلفة دون التزام أحيانا بقيود التقاليد أو القيم السائدة فى المجتمع .

(٢) الأزياء العالمية ـ الموضة :ـ ونعنى بالأزياء العالمية أو الموضه هجر الثوب . وهنا للنساء عدّة خيارات . إمّا فستان أو بلوزة وتنورة (إسكيرت) أو بلوزة وبنطلون وهذه الأزياء اقتصرت حتى بداية السبعينات على الشابات من مجموعة المسيحيين، أو من الأقاليم الجنوبية ،أو بعض المجموعات التى عاشت خارج السودان لفترة طويلة ،أو بعض الأسر المتعلّمة . ولكن نلاحظ منذ منتصف السبعينات زيادة أعداد الشابات اللّائى يلبسن الأزياء العالمية . وتتبع أغلب

هذه المجموعات الموضات فى أوربا. فالمشاهد للشابات فى الطرق أو فى المعاهد الأكاديمية أو المناسبات الاجتماعية يجد كل موديلات الأزياء الموجودة فى الأسواق الاوربية بأشكالها وألوانها. فحتى ذوات الدخل المحدود من البنات يحاولن مواكبة التغيّر فى الموضات فى العاصمة القومية. ولذلك نجد من يلبسن التنورة حتى منتصف الساق وبلوزة بأكمام طويلة وتغطى رأسها بطرحة تتدلى من فوق الشعر وتلف الى الوراء حول العنق وتكون الطرحة فى لون الزى فى أغلب الأحيان ونجد من تلبس فستانا قصيرا أو بلوزة بأكمام قصيرة وتنورة دون استخدام غطاء للرأس. وهنالك مجموعات تستخدم آخر صيحات الموضات فى البناطلين ويتضمّن ذلك الجينز أو البناطلين الخفيفة ذات الألوان الزّاهية التى انتشرت مؤخرا.(١٦)

(٣) الحجاب (أو الزّى الاسلامى):- الحجاب كما أسلفنا ظاهره قديمة ولم تختف فى تقديرنا بدليل استمرارية استخدام الثوب السودانى الذى هو تطبيق ما لفكرة (الحجاب). ولكن فى العقدين الأخيرين بدأ رواج الحجاب بين النساء كمدلول سياسى واجتماعى. وفى الواقع فكل ما طرأ على الأزياء المعتادة هو فى تطويل التنورة أو الاسكيرت واستخدام الأكمام الطويلة وغطاء للرأس إمّا تحت الثوب أو بدونه للأئى يلبسن الأزياء العالمية. ولكن الاشارة الى الحجاب أو ما يسمّى أحيانا بالزّى الاسلامى، قد تعنى أكثر من صورة لذلك الزى وذلك لاختلاف الآراء فى ماهية مكوّنات الزّى الاسلامى. فالبعض يركز مثلا على أهمية غطاء أجزاء جسم المرأة باستثناء يديها ووجهها وقدميها دون الدخول فى تفاصيل فى شكل الزى. ونجد مجموعات ترى وجوب تغطية كل جسد المرأة بما فى ذلك العيون.

وهنالك بعض المجموعات الأخرى التى تدخل فى تفاصيل عن شكل الزى مع تحديد ألوان معينة دون الأخرى وتفصيل موديلات معينة. ففى إحدى الصحف الحائطية بجامعة الخرطوم كان من مواصفات الزى الاسلامى أن لا يبرز تقاطيع جسم المرأة ولا يكون لونه أصفر، أو أحمر يجذب لها الأنظار، وتضمّنت مناقشة الزى الاسلامى إعطاء درجات للأزياء على أساس الأكثر أسلمة أو تقبلا بين المجموعات الاسلامية. ومن هذا المنطق فقد صحّ قولنا بوجود عدّة أنماط من الأزياء التى تنضوى تحت

نطاق (الحجاب أو الزى الاسلامى) نوجزها فيما يلى:-

أولا: عند المجموعات المتشدّدة ومنها مجموعة أنصار السنّة يتكوّن الزى من فستان طويل واسع بأكمام طويلة شبيه بجلّابية الرجال من لون بيج أو رمادى فوقه عباءة إمّا رمادية أو سوداء أو بيج تصل حتى القدمين وذلك مع غطاء الشعر وفوقه غطاء آخر يتدلّى من الرأس وحول العنق وينزل حتى الخصر علاوة على غطاء على الوجه يغطّى العيون أحيانا. أضف الى ذلك جورب يغطّى القدمين وأحيانا قفاز يغطّى ما ظهر من اليدين.

ثانيا: وزى الحجاب الأكثر استعمالا هذه الأيام فى الخرطوم يتكوّن من فستان طويل بأكمام طويلة وبلوزة بأكمام طويلة وغطاء للشعر ويلبس فوق هذا الفستان أو التنوزة الثوب السودانى وتحرص المجموعات المتيسرة على ملاءمة ألوان مكوّنات زى الحجاب. فمجموعة من النساء السياسيات من حزب الأمّة، خاصّة من بيت المهدى، كنّ بعد الانتفاضة ملتزمات بهذا النوع من الزى باستخدام أفخر أنواع الأقمشة والثياب مع الحرص على تناسق الألوان، وقد يعكس ذلك محاولة لتمييز أنفسهنّ عن بقية النساء وذلك لتثبيت أيديولوجية (بيت المهدى).

ثالثا: هنالك غالبية من الشابات يرتدين فستان طويل بأكمام طويلة وبلوزة بأكمام طويلة وتنورة طويلة قد تظهر أجزاء الجسم أحيانا مع تغطية كاملة أو جزئية للشعر. ومن الملاحظ أنّ هؤلاء الشابات يتبعن صيحات الموضة فى موديلات التنورات والبلوزات وألوانها.

يتضح من هذا الوصف تعدّد أنماط الأزياء بين النساء فى الخرطوم واختلاف هيئاتها من النقاب الى الأزياء الأوربية الحديثة مع ظهور اتجاه واضح لانتشار الحجاب. ووراء هذا التعدّد عدّة عوامل منها ما يعيشه المجتمع من تغيّرات اقتصادية واجتماعية بالاضافة للاحتكاك الثقافى بين المجموعات من داخل السودان وخارجه والهجرة الى دول النفط. ويعزى انتشار الحجاب الى نشاط المجموعات الاسلامية خاصّة فى المدارس وما ظهر مؤخرا من انتشار لدروس دينية

للنساء فى الأحياء. أضف الى ذلك اقتداء النساء ببعضهنّ البعض كما تساهم وسائل الاعلام فى نشر فكرة الحجاب خاصّة فى فقرات برامج المرأة. وتشترط بعض المؤسسات التعليمية الحجاب لمنسوبيها أو المتعاملين معها. وغالبا ما تتفاعل هذه العوامل بطرق مختلفة وبالتالى يختلف تأثيرها بين المجموعات وتختلف الأزياء.

أهم التغيّرات والأزياء وأسبابها

بعد وصف هذه الأزياء يجدر بنا أن نستعرض أهم التغيّرات التى طرأت على أزياء المرأة وأسباب هذه التغيّرات الطارئة على زى المرأة ما يلى:-

(١) عدم التزام البنات الصغيرات بعد سن التاسعة بلبس الطرحة أو الثوب كما كان فى الماضى.

(٢) تخلّى بعض الشابات عن الثوب حتى بعد العشرينات أو الزواج واستبداله بأزياء أخرى.

(٣) إزدواجية الأزياء بين بعض الشابات على حسب المناسبات فهنّ يلبسن الثوب للعمل وللعزاء بينما يتركنه فى مناسبات أخرى أو هنّ يلبسن الثوب متى ما حلا لهنّ دون التقيّد به فى كل المناسبات.

(٤) استخدام كثير من النساء من الأقاليم الجنوبية ومن مجموعات النوبة للثوب أو غطاء فوق الفستان شبيه بالثوب.

(٥) عدم التزام النساء فى المؤسسات التعليمية ومجالات العمل الرسمية بالثوب الأبيض كما كان متبعا رسميا.

(٦) وضوح الاختلافات بين نوعية الأزياء التى ترتديها المجموعات المقتدرة والفقيرة.

(٧) لجوء كثير من الفتيات من الأسر غير المقتدرة والفقيرة لايجاد بدائل للثوب ولذلك نجد أنّ كثيرا من الفتيات استخدمن أنماط الحجاب السائدة ليس لأسباب ضغوط أسرية أو انتماء لمجموعات دينية بقدر ما هو مخرج لعدم الرغبة من الخروج من الاطار المقبول للأزياء اجتماعيا.

ومن الجانب الآخر فإنّه قد يصعب الاشارة الى سبب محدّد لما طرأ من تغيّرات فى الأزياء. فالتجديدات هى انعكاسات لمجمل التغيّرات

التى طرأت على البيئة الاقتصادية الاجتماعية للمجتمع فى الفترات التاريخية والمختلفة. ولكنّه ربما كان لعامل معين دور أكثر فعالية من العوامل الاخرى فى فترة زمنية معينة. من الأهمية أن نذكر أنّ التغيّرات التى طرأت على زى المرأة تغيّرات شكلية ولم تخرج من إطار الحجاب كثيرا وذلك للأسباب الآتية :-

(١) إنّ الزى عنصر ثقافى يرتبط بمعتقدات ومفاهيم راسخة فى المجتمع.

(٢) التغيّرات التى طرأت على وضع المرأة كانت محدودة.

(٣) حرص رائدات الحركة النسائية على استمرارية الأزياء التقليدية حتى لا يجرى تهميش قضية المرأة بالتركيز على المظهر.

(٤) عدم اهتمام الحكومات المتعاقبة بقضايا النساء عامّه والزى خاصّة.

ولكن بالرغم من أنّ التغيّرات فى أزياء النساء لم تخرج كثيرا من إطارها المتعارف عليه إلّا أنّ لها أهمية اقتصادية واجتماعية يمكن أن نلخصها فى الآتى:-

(١) الأزياء عامّة فى ظل الظروف الاقتصادية أصبحت عبئا اقتصاديا على الأسرة فى المجتمع وزاد من ذلك العبء ظهور الموضات وإقبال النساء على تلك الموضات الذى يعنى ارتفاع الأسعار أكثر فأكثر. ومن الملاحظ أنّ معظم الأزياء الجديدة، العالمية منها أو الحجاب، تحتاج الى كمية من القماش قد تعجز كثير من الأسر على تغطيتها سواء أكان لبناتها للمدارس أو للنساء للاستعمال اليومى. وذلك قد يفسّر رواج تجارة الملابس المستعملة منذ منتصف الثمانينات.

(٢) بالتركيز على المظهر، والاهتمام بالموضات بين كثير من النساء وخاصّة من الطبقات الغنية اختلّ التوازن الذى كان موجودا بين النساء فى لبس ما هو ملائم للمناسبات وأصبحت بيوت العزاء مناسبات لاستعراض الامكانيات الاقتصادية، فنجد مهرجانات من الألوان الزاهية الجذابة والثياب التى يصل سعرها الى الآلاف من الجنيهات. وبما أنّ ذلك سائد بين النساء من الطبقات الأخرى، حتى الفقيرة منها، بلبس أحسن ما عندهنّ

لمناسبات العزاء وإعادة لبسه للمناسبات الأخرى. ولذلك نجد اختلالا فى التوازن من ناحية اختيار الألوان عامّة ونوعية الثياب ، التى أصبحت أحيانا تتناقض مع أهداف الحضور للمناسبة المعينة. وقد ينطبق ذلك على بعض النساء العاملات وطالبات المعاهد والجامعات إذ أنّه واضح أنّ هنالك خلط فيما يمكن أن يلبس للعمل والدراسة وما يلبس فى مناسبات أخرى. فالتركيز على المظهر قد يصرف المرأة عن التفكير فى قضاياها الأساسية المرتبطة بوضعها فى المجتمع وعدم تنظيم الأزياء أو ملاءمتها للمناسبات ويعكس ذلك تدنّيا فى مستوى وعى النساء.

(٣) استخدام الزى كعنصر سياسى واجتماعى يرتبط بسلوك المرأة وتوجهها يقود الى بث انقسامات جديدة فى صفوف النساء تعوق نضال المرأة لتوحيد صفوفها والاهتمام بتحسين أوضاعها.

(٤) زى العمل وما به من تغيّرات يعكس سلبيات ويفرز اشكاليات. فهنالك غياب التنظيمات بين النساء العاملات لمناقشة مشاكلهنّ وطرح الحلول والمشاركة فى اتخاذ القرار فيما يختص برى العمل. وقد يتبادر للذهن فى هذا الصدد العديد من الأسئلة ،لماذا مثلا الاصرار على ارتداء الأبيض فى العمل فى ظل ظروف الغلاء والمعاناة التى يعيش الشعب السودانى فيها؟ وإذا أخذنا علما بتكدّس النساء فى المهن ذات العائد المنخفض فكيف تستطيع النساء توفير زى العمل ؟ هل ارتداء الأبيض فى العمل عرف وإذا كان الأمر كذلك فلماذا تصر عليه بعض الادارات فى المرافق الرسمية أو لماذا يكون لبس غير الأبيض مثار دهشة وتساؤل ؟ لماذا لا يحدّد لون معين لأزياء الرجال؟ وإذا استطاعت المرأة أن تتخلى عن الأبيض هل بامكانها بلورة وعى لادراك ما هو مناسب للعمل يحل ويأخذ رمزية الأبيض ؟ أم سينعكس ما هو سائد من خلط فى المجتمع عامّة فى مجتمع العمل ؟

الخاتمة

أشارت كلمتى هذه الى بعض أنماط الأزياء التى كانت تلبسها النساء فى فترات تاريخية مختلفة واتضح أنّ هنالك بعض التغيّرات

التى طرأت على أزياء المرأة. وما طرأ من تغيّرات على زى المرأة فى الخرطوم كان تغيّرا شكليا إذ تغيّرت طريقة لبس الثوب باختفاء (البلامة) منذ الخمسينات ،كما طرأت تغيّرات فى نوعية القماش المستخدم للثياب وأشكال الرسومات عليه فى فترات مختلفة إذ تظهر فى كل فترة موضات من الثياب وتختفى لتظهر أشكال أخرى. أمّا ما ترتديه المرأة تحت الثوب فقد طرأ عليه أيضا تأثير واضح بالأزياء العالمية إذ اختفى القرقاب والتنورة والرّحط .

كان من سمات العقد الأخير ظهور اتجاه واضح بين جيل الشابات فى الخرطوم بالتخلّى عن الثوب ومحاولة إيجاد بدائل من أشكال الحجاب لأسباب دينية أحيانا وسياسية واقتصادية أحيانا أخرى. واتجهت بعض المجموعات الى الأزياء العالمية كبديل للثوب وقد كان واضحا اختلاف الأزياء بين الفئات العمرية المختلفة وبين النساء من الطبقات الاجتماعية المختلفة. وحاولت فى المقالة ربط ما طرأ من التغيّرات على الأزياء كعنصر ثقافى،بالتغيّرات فى بنية المجتمع الاقتصادية الاجتماعية وتأثير ذلك على أوضاع وأدوار المرأة وما تعيشه كثير من النساء من تدنّ فى الوعى،ومن الملاحظ أنّ ما تم من تغيّرات يعكس توجهات مختلفة للنساء ومتناقضة.

الهوامش

(١) J.L. Burkhardt,Travels in Nubia .(London 1982).

(٢) نعوم شقير،جغرافية وتاريخ السودان (بيروت : ١٩٦٧) ص ٢٥٤

(٣) G.G. Seligman and B.Z. Seligman, Pagan Tribes in the Nilotic Sudan .(London,1932).

(٤) أنظر شقير،جغرافية،صفحات ٢٥٤- ٢٥٥

(٥) فاطمة بابكر محمود،"دور المرأة فى نشأة الدولة الرأسمالية فى السودان"،عند ناهد طوبيا (محرّر) التحديات التى تواجه المرأة العربية فى نهاية القرن العشرين (القاهرة ،١٩٨٨ صفحات ٢١٩-٢٤٠

(٦) حاجة كاشف بدرى، الحركة النسائية فى السودان (الخرطوم ،١٩٨٥)

(٧) فاطمة أحمد ابراهيم،حصادنا خلال عشرين عاما (الخرطوم،بدون تاريخ)

(٨) G.E. Tayeb, "Women's Dress in Northern Sudan," in S.Kenyon (ed), The Sudanese Woman (Khartoum,1987).

(٩) فاطمة أحمد ابراهيم ،حصادنا ،ص ١٤٦

(١٠) نفسه ،صفحات ١٦٩- ١٩٧٥

(١١) ثوب "الزراق" هو ثوب طوله أربعة أمتار ونصف ترتديه النساء السودانيات وهو من قماش مصنّع فى مصر،رخيص التكلفة ،ويتم صنعه محليا باللّون الأزرق. أنظر سامية النقر وآخرين "أثر العوامل الاقتصادية والاجتماعية على الزى والزينة فى السودان،" (تقرير بحثى ١٩٨٩ غير منشور).

(١٢) J.A. Williams, " Veil in Egypt as a Political and Social Phenomenon," in J.L. Esposito (ed.), Islam and Development Religion and Sociological Change (New york,1980), pp.71-86

(١٣) أنظر سامية النقر وآخرين، "العوامل الاقتصادية"،صفحات ١٢-١٨.

(١٤) Williams, Veil in Egypt, pp.71-86

(١٥) تضمّنت لائحة سلوك العاملين بمجلس الوزراء أمرا بلبس النساء للثوب الأبيض.

(١٦) أنظر سامية النقر وآخرين، "العوامل الاقتصادية" صفحات ٢٢-٢٤.